النظريات الاشتراكية فى اقتصاديات السكان

الدكتور صـــلاح الدين نامق

ان محور النظريات الاشتراكية فى اقتصاديات السكان ـــ منذ الاشتراكيين المثاليين الانجليز والفرنسيين الذين سبقوا ماركس ثم منذ ماركس نفسه فى منتصف القرن التاسع عشر واتباعه من اشتراكيى القرن العشرين ـــ تدور حول الهجوم الشديد على مالتس والآراء التى أدلى بها . فالدراسات السكانية الاشتراكية على اختلاف مناهجها وانواعها ترفض رفضا باتا آراء مالتس وتعتبرها متحيزة بعيدة عن الاصالة وممعنة فى التشاؤم الذى ليس له ما يبرره .

ولا بد لنا أن نتذكر هنا أن مالتس قد صاغ نظريته فى السكان كهجوم على اشتراكية المدينة الفاضلة مع الاشارة بطريق مباشر الى آراء مستر جودوين والمسيو كوندرسيت وغيرهما من الفلاسفة والكتاب المثاليين .

فالتقدم البشرى فى رأى هؤلاء المثاليين تقدم لا حدود له اذا تم اصلاح المجتمع باجهزته المختلفة . أما مالتس فيعتقد أن السبب الرئيسى فى فقر وبؤس البشرية انما يرجع الى تزايد الانسان فى اعداده بحيث أصبحت موارد الثروة القومية غير كافية . ومن ثم فهو يقلل من أهمية تقدم البشرية فى المنافسة الفردية والتزام قواعد الاخلاق . ويعـــارض قوانين الفقراء فى انجلترا باعتبـــارها مؤدية الى مزيد من التزايد السكانى ومضعفة لنواحى الفردية البناءة التى هى من الزم العناصر المكونة للشخصية الاقتصادية والكرامة الانسانية .

ولم يقبل الاشتراكيون جميعا هذا التعليل ونعوا على مالتس اغفاله لاثر الاوضاع السياسية والاقتصـــادية السائدة التى تؤثر ـــ ولا شك ـــ فى الاوضاع السكانية وتتجه بها الوجهة التى تتفق وظروف السياسة والاقتصاد. فالتضخم السكانى الذى ركز عليه مالتس أهمية كبرى واعتبره علة العلل فى الدراسات السكانية هو ـــ فى رأى الاشـــتراكيين ـــ فائض فى العمالة بالنسبة لفرص العمل المتاحة ، ولذلك فمن الممكن تخليص المجتمع من هذا الفائض السكانى بتخطيط الاقتصاد القومى تخطيطا اشتراكيا شاملا يسمح بزيادة المشروعات الاقتصـــادية المتكاملة فى المجالات الصناعية والزراعية وقطاع الخدمات مما يؤدى الى امتصاص الفائض السكانى وادخاله الى قطاع العمل والتشغيل . وعندئذ تنتفى المشكلة السكانية وتصبح فى خبر كان . فالتضخم السكانى النسبى ـــ فى رأى الاشتراكيين ـــ هو لازمة من لوازم الاقتصاد الرأسمالى وخاصية أصيلة من خواصه الاقتصادية .

هذا هو الخط العريض الواضح فى النظريات الاشتراكية فى السكان : نقد لآراء مالتس وتفسير الظواهر السكانية على أساس أنها خلفية رأسمالية ونتيجة لازمة من نتائج تناقض هذا النظام . ومن ثم فهى تزول وتنتفى بزوال هذا النظام وتحول المجتمع الى الاشتراكية . ولكن النظريات الاشتراكية فى السكان تشترك فى ظاهرة أخرى مؤداها أن ليست هناك نظرية سكانية اشتراكية فى حد ذاتها Per ce يمكن أن تعزى الى مفكر اشتراكى بعينه عالج السكان بشكل مركز منفصل عن الدراسات الاقتصادية الاخرى . ذلك أن جميع الكتاب الاشتراكيين لم يهتموا فى كثير أو قليل بابراز نظرية منفصلة فى السكان ـــ كما فعل مالتس ـــ وانما عمدوا الى التركيز على الدراسات الاشتراكية ذاتها بأبعادها الاقتصادية المختلفة وكانوا يعرجون على الدراسات السكانية حينما يريدون تفسير جانب معين من جوانب المبادىء الاشتراكية أو حينمـــا يريدون ابراز ظاهرة من ظواهر الرأسمالية كالبطالة الدورية والجيش الاحتياطى من العمـــال الزراعيين وغير ذلك . وعندئذ يدخلون المسائل السكانية كدراسة جانبية .

والدراســـات السكانية فى راى المدرســـة الاشتراكية عموما لا تجىء مستقلة وقائمة بذاتها لانها أقل من أن تبرز على هذا النحو . فهى دراسة متصلة بالفكر الاشتراكى وليست أصيلة ، لان أهتمام المدرسة الاشتراكية قد تركز منذ زمن بعيد ـــ ولا يزال ـــ حول مبادىء سياسية وتفسيرات تاريخية مادية وتنظيمات اقتصادية معينة تهدف الى تنظيم طرق تحويل المجتمع من الرأسمالية الى الاشـــتراكية . ومن هنا لم تكن الدراسات السكانية لتحظى بالعناية الواجبة من جانب الاشتراكيين طالمـــا ان أمامهم مشاكل سياسية واجتماعية ابعد خطرا وأدعى الى الاهتمام .

ومع ذلك فان النظريات الاشتراكية فى السكان بدات تحظى بعناية فائقة من جانب الاقتصاديين المعاصرين لاسباب ثلاثة ـــ الاول ـــ انهـــا تدرس السكان من الجانب الاقتصادى البحت دون الجوانب السياسية والاجتماعية المعروفة الاخرى وهو اتجاه علمى سليم دعمته الاحداث التاريخية المعاصرة وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية عندما بدأت الدول المتخلفة ـــ والتى كانت مستعمرة أو شبه مستعمرة من قبل ـــ تتطلع الى التنمية الاقتصادية لتحقق التقدم المرموق ، ولتحتل مكانة مرموقة بين دول العالم . ولكنهـــا واجهت عوائق اقتصادية لايستهان بها وأهمها التزايد السريع فى الاعداد السكانية ومن ثم أخذت على عاتقها دراسة مشكلة السكان دراسة ممعنة فى التعمق والقت الضوء عليها ساطعا ولكن من زاوية اقتصادية بحتة طالمـــا ان الآثار الى تحدثها هذه المشكلة تصيب أول ما تصيب الاقتصاديات القومية لهذه الدول . وثانيا ـــ انتشار الاشتراكية فى كثير من دول العالم الثالث ـــ عالم الدول النامية ـــ فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية وانتقال المجتمعات فى هذه الدول الى الاشتراكية وتمسكها بها . الامر الذى فرض نوعا من الدراسة العلمية المنظمة لأهم ظاهرة اقتصادية فى هذه الدول وهى السكان ـــ ولكن داخل اطار الاشتراكية ـــ وهى دراسة جد مستحدثة وتحتاج دائما

الى كل الجهد والتعمق . أما السبب الثالث والاخير فى أهميـة الدراسات الاشتراكية السكانية المعاصرة ـ ولعله أهمها جميعا ـ فخاص بالناحية التطبيقية . فالنظريات الاشتراكية السكانية قد تضمنت جانبا تطبيقيا خاصا بتجنيد مبدأ تنظيم النسل فى ظروف اشتراكية معينة وعندما يصل المجتمع الاشتراكى الى مستوى اقتصادى وثقافى معين يصبح فيه الافراد قادرين على الاختيار الصحيح بين اقرار ضبط النسل أو رفضه . فلقد كتب فردريك انجلز الى كوتسكى فى سنة ١٨٨١ يؤيد ضبط النسل طالمـا أن هناك احتمالا لأن يصبح سكان الارض من الكبر بحيث يستلزم الالتجاء الى ضبط النسل باعتباره نوعا من التخطيط البشرى . ولكن على السكان فى هذه المرحلة أن يقرروا بأنفسهم متى وكيف يفعلون ذلك ، لان المستوى الثقافى السائد حينئذ هو الذى سيدفعهم الى اتخاذ هذا القرار(١) .

ولقد اتخذت روسيا السوفيتية فى السنوات الاخيرة سياسات تطبيقية سكانية معتمدة فى هذا الاجراء على التطبيق الكفء للتحول الاشتراكى من جهة وعلى الاوضاع الديموقراطية السائدة من جهة أخرى، ومن ثم ألقت الضوء على النظريات السكانية التى أدلى بها ماركس ولينين وستالين وكاوتسكى وغيرهم من أئمة الفكر الاشتراكى القدامى منهم والمحدثين . وهكذا اكتسبت النظريات الاشتراكية أهمية تطبيقية جنبا الى جنب مع أهميتها النظرية .

١ ـ الاشتراكيون السابقون على ماركس

عرف عن الاشتراكيين السابقين لمـاركس أنهم كتبوا فى السكان وزيادتهم عن الحجم الامثل وأثر ذلك فى الاوضاع الاقتصادية والسياسية فى البلاد أنهم جميعا أوضحوا ذلك ـ وكما سبق فى القول ـ ضمن أبحاثهم ودراساتهم السياسية والاقتصادية المتصلة رأسا بالاشتراكية والتنظيم الاشتراكى .

فالاشتراكية بالنسبة لهم تجىء أولا فى كتاباتهم بينما السكان تابع متغير يحتاج الى دراسة جانبية ولكنها لا تنفصل عن الدراسة الاصلية وهى النظرية الاشـتراكية .

ولقد كان هناك شـبه تطابق بين أفكار الكتاب الاشتراكيين السابقين لمـاركس ازاء المسألة السكانية . فالكل يجمع تقريبا على أن أصل المشكلة السكانية هو التناقضات الكامنة فى النظام الرأسمالى . والكل يجمع على أن المشكلة السكانية يمكن أن تذوب تدريجيا لو أن المجتمع عمد الى التحول الى الاشتراكية التى تزيل تناقضات المجتمع الرأسمالى . الا أن هذا التوافق

---

(١) جاء فى خطاب انجلز هذه الفقرة الهامة .

«The elightment of the masses can make possible that moral restraints upon the instinct for reproduction».

From Marx's letter to Kugelman dated 27 of June 1870. والمرجع هو

بـــين الكتاب الاشتراكيين فى آرائهم السكانية لم يتحول الى تطابق كامل لأسباب تتعلق بشخصية كل مفكر والبيئة والظروف المحيطة به .

ان الاشتراكيين ــ جميعا وبدون اســـتثناء ــ يعزون الفقر والبؤس الانسانى الى أخطاء فى النظام الاجتماعى القائم . ومن ثم ففى ظل الاصلاحات التى يقترحونها فان قوى انتاج الافراد لابد وأن تزداد وتسير عجلة الانتاج قدما الى الامام فتنتفى بذلك البطالة العمالية وتمتنع الزيادة السكانية . ومن هنا فليس من المستغرب أن تقف هذه الآراء وجها لوجه فى معارضة سافرة مع آراء مالتس فى السكان وخاصة ما اتصل بقانونه الطبيعى وتأكيده على أن حالة الطبقات الدنيا فى المجتمع لا يمكن أن تتحسن بأحداث تغيرات فى التنظيمات الاجتماعية .

ولقد كانت لهذه الآراء السياسية الجديدة رد فعل عنيف انتشر فى بقية الاوساط المثقفة من المجتمع الانجليزى فى ذلك الوقت . ونذكر على سبيل المثال ان الفيلسوف البريطانى Godwin الذى هو أبعد ما يكون عن النزعات ــ الاشتراكية السياسية ــ كتب عن مالتس يقول : « انه العبقرية السوداء المخيفة التى تقتل آمال الجنس البشرى » . وظل رد الفعـــل الذى أحدثه الاشتراكيون ازاء آراء مالتس وأتباعه ــ والى يومنا هذا ــ بنفس هـــذا العنف وتلك الشدة على الرغم من التغيرات التطورية التى طرأت على العالم ــ وخاصة العالم الغربى ــ منذ ذلك الوقت .

ويعتقد الكتاب الاشتراكيون السابقون لمـــاركس أن التنظيم الاشتراكى الذى يقترحونه ويدعون اليه كفيل بمنع ظهور الزيادات السكانية التى هى من أخص صفات النظم الرأسمالية المتخلفة غير المتطورة . الا أن هذه الزيادات لا تمتنع بمجرد انتقال المجتمع من الرأسمالية الى الاشتراكية وانما ينبغى على الاشتراكية أن تعمل على زيادة الانتاج ما وسعها ذلك ، لان هذه الزيادة الانتاجية هى التى ستعمل على امتصاص العدد الزائد من السكان ووضعه فى موضعه الصحيح من العمل والتشغيل .

ولقد كانت هذه الآراء واضحة تماما عند الاشتراكيين الريكاردیين الانجليز فى أوائل القرن التاسع عشر . ونذكر على سبيل المثال الاشتراكى البريطانى Bray الذى يقول ، طالمـــا أن العامل هو المنتج الوحيد لجميع أنواع الثروة فان الزيادة فى الانتاج يمكن أن تسير جنبا الى جنب مع الزيادة فى الاعـــداد السكانية . أما Thomposer فيعتقد أن الزيادة السكانية لن تشكل خطرا اقتصاديا طالمـــا أن المجتمع يتجه نحو الاشتراكية التعاونية الكفيلة بدرء جميع اخطار الزيادة .

ويؤكد نفس هذه الاراء الاشتراكيون الفرنسيون من أتباع سان سيمون وفورييه وبرودون الذين أظهروا ثقة كبيرة فى الانسان والطبيعة الانسانية التى تستطيع أن تفعل الاعاجيب .

---

(١) Lowenthal, « The Ricardian Socialists ».

ان سوء توزيع الثروة ــ فى رأيهم ــ هو السبب الرئيسى لفقر وبؤس الطبقات العاملة فى المجتمع الرأسمالى ولقد أوضح سان سيمون San - Simon وأتباعه أن الفقر ليس بالآفة الانسانية الازلية التى لا يمكن الغاؤها من قاموس البشرية وانما هو مظهر انسانى متغير يمكن أن يزول نهائيا لو أن المجتمع استبدل نظام الملكية الجماعية بنظام الملكية الخاصة وبالتالى لو أن المجتمع انتقل من نظام الانتاج الصناعى الخاص الى الانتاج الجماعى الصناعى . أن مثل هذا التحول سيؤدى ــ ولا شك ــ الى زيادة فى الانتاجية ، والتى ستؤدى الى توسيع قاعدة العمالة الصناعية . كذلك يعتقد سان سيمون وأتباعه أن الموانع الاخلاقية التى أكدها مالتس أكثر من مرة فى نظريته السكانية تتعارض مع سعادة العمال ورفاهيتهم . ومن ثم فهى مرفوضة من أساسها .

أما فورييه Fourrier فيتخذ طريقا أكثر وضوحا من سان سيمون ، فهو يحبذ التنظيم الاختيارى للنسل ولا يجد غضاضة فى الاعلان عن رأيه هذا على الرغم من أن مجرد هذه الفكرة تثير غضب بقية الاشتراكيين المعاصرين له ، باعتبارها مظهرا لضعف الاجهزة الاقتصادية فى متابعة زيادة الانتاج الذى هو أولا وأخيرا العلاج الناجع لزيادة السكان . ولكن فورييه لا يحبذ تنظيم النسل هكذا على علاته بل يشير الى أن التغيرات التى تطرأ على أنماط معيشة المجتمع الاشتراكى سوف تؤدى الى شىء من ضبط النسل . وهى فكرة تقترب جدا من الافكار التى تنسب الى ماركس فيما بعد بل والافكار الحديثة جدا التى تطبق فى الاتحاد السوفيتى اليوم . ذلك أن روسيا السوفيتية على الرغم من اتجاهاتها الاشتراكية السياسية المعروفة لاتجد غضاضة فى ترك الحرية التامة للزوجين فى ضبط نسلهما اذا شاءا ذلك .

أما برودون Proudon فيعتقد بأن المجتمع يجب أن يبحث فى نوع متحرر من الاشتراكية حيث لا ضغط من السلطات المركزية ولا اجبار من جانبها على الشعب لاتباع سياسة ما أو فعل ما . ففى ظل هذه الاشتراكية التحررية يمكن خلق التوازن البناء بين السكان والانتاج . وهو التوازن الذى يحقق التقدم الاقتصادى لا محالة(١) .

ولقد كان الاقتصاديون الالمان من أتباع روبرتس ولاسال المؤيدون لمبدأ اشتراكية الدولة من أعدى أعداء آراء مالتس . فهم يعتقدون أن مالتس داعية من دعاة الرأسمالية لم يتعمق فى كنهة الظواهر الاقتصادية والسياسية الكامنة فى هذا النظام والمؤدية الى الفقر والبؤس والرذيلة . ان الجوع فى معناه العصرى ــ كما يعتقدون ــ ليس جوعا بالمدلول الحرفى للكلمة وانما هو انخفاض فى مستوى الاجور العمالية فى ظل النظم الرأسمالية نتيجة لعلل رأسمالية بحتة تؤدى مجتمعة الى انخفاض مستوى الاجور .

---

(١) Spengler; «French population Theory since 1800». p. 20.

فنظام الملكية الفردية الذى يستطيع النمو والتضخم الى مالا نهـــاية سيؤدى الى عدم عدالة توزيع الناتج القومى الجماعى والى تحكم القـــلة المـــالكة فى الكثرة التى لا تملك الا سواعدها وعند ذلك ـــ وفى وجود عرض كبير من العمال والمزيد من احلال الآلات محل اليد العاملة ـــ ستظهر البطالة العمالية وستنخفض الاجور ، وسيظهر مايسمى بالجوع العصرى Modern Starvation فالعمال ـــ فى رأيهم ـــ هم الذين يخلقون الثروة الا أنهم ـــ مع ذلك ـــ لا يحصلون الا على أجر الـــكفاف . وهو الاجر الذى يجعلهم دائما على حافة الجوع . كذلك فان الزيادة السكانية ، وخاصة بين صفوف العمال ، تعمل على زيادة المعروض منهم فى سوق العمل وبذلك تزيد حدة استغلالهم من جانب أصحاب الاعمال وهنا يقترح الاشتراكيون الالمـــان قيام اشتراكية الدولة حيث تتدخل الدولة دائما فى صالح العمال وتعمل على اذابة الفروق بين الطبقتين العمال وأصحاب الاعمال وتنشىء قطاعا عاما قويا يمتلكه العمـــال أنفسهم ويديرونه ، وحينئـــذ تصفى تدريجيا دولة البورجوازية التى اقتصرت مهمتها على مجرد المراقبة ـــ مراقبة ســـير الجهاز الاقتصادى التلقائى ـــ دون التدخل لحماية الضعيف ، وهم فئـــة العمال ، من جبروت القوى ، وهم فئة أصحاب الاعمال(١) .

وبنفس هذا الاتجاه الفكرى الواضح ينتقد الاشتراكيون الايطاليون ـــ وخاصة أشيلا لوريا ـــ Achilla Loria ـــ النظام الرأسمالى متهمين اياه بأنه السبب المباشر لظهور مشكلة الضغط السكانى . ولقد طور لوريا وغيره من الكتاب الاشتراكيين الايطاليين نظرية سكانية متكاملة مؤداها أن الضغط السكانى الكبير الذى تعانى منه بعض الدول والمناطق الراسمالية فى العالم ما هو الا مظهر اقتصادى واجتماعى معين يسود لمرحلة معينة من مراحل التنمية الاقتصادية . كذلك يعتقد « لوريا » أن فكرة الضغط السكانى أكثر ارتباطا برأس المـــال وكيفية استخدامه فى عملية التنمية من مجرد ارتباطها بالندرة النسبية للطعام . فرأس المـــال ـــ بناء على رأيه ـــ هو من أهم العوامل التى ترتكز عليها التنمية الاقتصادية فضلا عن أنه المساعد الفعال فى حل مشكلة الطعام .

كذلك يعتقد لوريا أن الضغط السكانى الكبير الذى تعانى منه ايطاليا ـــ ابان القرن التاسع عشر ـــ انما يرجع الى نظام الاجور الرأسمالى السائد حينذاك والذى من شأنه اعاقة الانتـــاج والتكوين الرأســـمالى والاستخدام الانتاجى الامثل لموارد الثروة القومية . وستؤدى هذه العوامل مجتمعة الى اجبار العمال على قبول أجور بائسة مخزية تضعف من قدرتهم

---

(١) يشبه Spengler وظيفة دولة البورجوازية بوظيفة الحارس الليلى « الخفير » الذى يقتصر عمله على الحراسة الليلية على بيوت وممتلكات الاغنياء فى الريف ، ويقتصر كل ما يفعله فى الحياة على هذا العمل . أما اشتراكية الدولة فتتدخل بالفعل فى النشاط الاقتصادى للافراد وتنظم أوضاعهم الاجتماعية لصالح الطبقة العمالية . (نفس المرجع السابق) .

على التعفف . أما اذا توافرت رؤوس الاموال فى المجتمع واستثمرت على اساس اشتراكى وبالتالى بطريقة أكثر انتاجية فان البطالة تزول تدريجيا ، كما يمكن أن تزيد انتاجية العمال . وهنا ترتفع مستويات الاجور وتتحسن ظروف المعيشة ويبدأ العمال فى التطلع الى كل ما هو افضل ، وبذلك توجد الارضية الفكرية والثقافية المؤدية الى عدم الزيادة فى الاعداد البشرية .

وواضح أن « أشيلا » ينحو منحا سكانيا ينتهى الى فكرة الثقافة وأثرها المخفف من مساوىء الضغط السكانى ، وهى النظرية التى سنعالجها تفصيلا فى الفصل القادم عند مناقشة نظرية المراحل السكانية .

أما الاشتراكى الايطالى نيتى Nitti فيتجه نفس الاتجاه الاقتصادى الذى اتجهه لوريا . فمستوى معدلات المواليد فى دولة ما يرتبط ارتباطا مباشرا بالعوامل الاقتصادية . فهو يرتفع حيث يسود الفقر والعوز ويبدأ بالانخفاض حين ترتفع الدخول النقدية الحقيقية . وهى نظرية أصبحت جد معروفة فى الاوساط السكانية منذ أوائل القرن العشرين . الا أن فضل Nitti هنا هو مجرد التلميح بها دون أن يهتم كثيرا بتطوير ارائه هذه لتأخذ الطابع النظرى العام القائم على أساس التجربة والتطبيق .

ولقد اقترح Nitti علاجا للمشكلة السكانية ــ كما كان يسميها فى بعض مؤلفاته ودون أن يحدد أبعادها بدقة ــ على أساس رفع مستوى معيشة السكان بطريقة تدريجية عن طريق قيام تنظيم اجتماعى قوى يتيح الفرصة أمام جميع المواطنين لتنمية ملكاتهم الفردية .

استمع اليه وهو يقول : « فى كل مجتمع حيث تقوى وتتطور الفردية الانسانية وتنمو الاشتراكية نموها الطبيعى الذى لا يطفى على النشاط الفردى ، وحيث تتجزأ الثروة القومية بحيث ينال الجميع من هذه الثروة دون أن يستحوذ عليها نفر قليل من السكان ... فى هذه الظروف جميعا يمكن تعادل معدل المواليد مع موارد الثروة القومية وحينئذ يحل التقدم والرخاء محل الخوف والتحكم »(١) .

٢ ــ كارل ماركس

يختلف ماركس اختلافا واضحا عما سبقه من الاشتراكيين الذين ناقشوا المشكلة السكانية ، فهو لم ينشىء نظرية سكانية فى حد ذاتها كما فعل مالتس فى أوائل القرن التاسع عشر وانما لمس فقط المسألة السكانية ببساطة من خلال دراساته وأبحاثه الاقتصادية والسياسية والفلسفية المتعمقة. الأن هذه اللمسات البسيطة كونت فى مجموعها مفهوما محددا واضحا للسكان ، تطور من خلال تفسيره لنظريته فى المادية التاريخية وخلال المراكز الاشتراكية المعاصرة عن المشاكل السكانية .

(١) Nitti, «Population... » Page 191.

وماركس العالم والاقتصـــادى والمؤرخ على الرغم من تنوع دراساته وأبحاثه لم يدرج المسألة السكانية صراحة الا فى خطاباته لأتباعه ومريديه من مثقفى عصره وأثناء نقده المرير لاراء مالتس . ومن ذلك فان هيئة الامم المتحدة فى دراسة مستحدثة لها بعنوان « محددات وآثار الاتجاهات السكانية » سنة ١٩٦٨ تقول : « بينما لم يذهب ماركس الى ايجاد تحليل واف عن أسباب التغيرات السكانية فان مفهومه فى المـــادية التاريخية ـــ مع ذلك ـــ قد وفر لاتباعه العناصر اللازمة لتكوين نظرية سكانية »(١) .

كما أن الآراء السكانية التى أوردها ماركس فى صفحات متفرقة من دراســـاته الاقتصادية والسياســـية أثرت تأثـــيرا واضحا فى تشـــكيل أفكار لينين وكاوتسكى وغيرهما من أئمة الفكر الشيوعى فى القرن العشرين، الذين ساهموا مساهمة ضخمة فى بناء دولة روسيا السوفيتية الاشتراكية التى طورت اقتصادها القومى وأبرزت للعالم بأسره تجربة انسانية خلاقة فى الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسكانية كانت ـــ ولا تزال ـــ ذات أثر واضح فى اثراء تجارب أخرى متشابهة دفعت عجلة التطور فى كثير من الدول النامية اليوم .

نقـــده لمـــالتس :

وماركس قبل أن يكتب عن نظريته فى السكان يعمد أولا الى نقد نظرية مالتس باعتبارها أهم نظريات القرن التاسع عشر وأبعدها أثرا وشهرة . وهو فى هذا يسير نفس اتجاهه الفكرى المعروف ، فلقد فعل هذا عنـــد عرضه للنظرية الشيوعية ، اذ عمد الى نقد النظام الرأسمالى السائد حينذاك متهما اياه بأنه السبب الرئيسى فى الفقر والتأخر البشرى . وبعد أن فرغ من هذا الاتهام واطمأن الى بلوغ هدفه بدأ بعرض المقومات الاساسية لنظريته فى المادية الفلسفية الديالكتيكية والمفهوم المادى للتاريخ والصراع الطبقى وفائض القيمة وما الى ذلك من مقومات المذهب المـــاركسى .

ولقد كانت هـــذه هى طريقة كارل ماركس المـــألوفة فى عرضه لفكرة أو مبدأ ما فهو يبدأ بتوجيه النقد اللاذع الى المبدأ المضاد الذى يود عرضه محاولا هدمه من أساسه وكأنه يمهد الارضية الفكرية لمبدئه الاصلى ليبنى بعد ذلك البناء الكبير الذى سوف يركز عليه كل أفكاره .

لقد انتقـــد مالتس ونظريته انتقادا مرا متهما الرجل بأنه أحـــد أبواق الرأسمالية اشترته الطبقـــة البورجوازية ليبث النقمة والشر فى نفوس المواطنين وخاصة الطبقة العمالية بالذات .

فمالتس ـــ بناء على رأى ماركس ـــ يصرخ فى وجه العمال قائلا:« انكم تتزايدون باستمرار وتتكاثرون كالفئران ، ولذلك كتب عليكم الذلة والفقر ».

(١) United Nations — «The Determinants and Consequences of Population Trends» 2nd edition 1968; Ch. III p. 29.

انه تيس يصب جام غضبه على العمال الضعفاء الابرياء ونسى أو تناسى أن السبب الرئيسى فى فقر العمال وذلتهم هم الطبقة الرأسمالية الظالمة المستبدة والمستغلة والتى يدافع عنها .

كذلك عمد ماركس الى القول بأن آراء مالتس ونظريته الاقتصادية السكانية بعيدة عن الاصالة العلمية وتكاد تكون كلها منقولة ممن سبقوه من الاقتصاديين أنظر الى هذه الفقرة التى كتبها مهاجما مالتس شخصيا :

« ان المعجبين بمالتس لا يعلمون أن الطبعة الاولى من كتابه كانت ــ بغض النظر عن محتوياتها الخطابية البحتة ــ نقلا فى أساسها من ستيوارت »(١) .

ثم يتكرر هذا الاتهام بالسرقة الادبية فى حاشية كتابه عن تناقض الغلة فى الزراعة « ... وهى نظرية أضافها مالتس فى عام ١٨١٥ وهو استاذ فى السرقة الادبية وكانت نظريته فى السكان برمتها سرقة فى غير حياء »(٢) .

ثم أنظر الى ماركس حين يغالى فى نقده قائلا : « لو أن القارىء يذكرنى بمالتس الذى نشر مقاله عن السكان فى عام ١٧٩٨ لوددت أن أذكره بأن هذا المؤلف فى صورته الاولى لا يزيد عن كونه سرقة أدبية مما يلجأ اليها صبية المدارس فضلا عن أنها سطحية ... انها سرقة بأسلوب خطابى كأسلوب القساوسة من ديفو وسير جيمس ستيوارت وتوسند وفرانكلين وغيرهم دون أن تتضمن جملة واحدة من تفكير مالتس نفسه »(٣) .

وليس لدينا تعليق على هذا النقد الجارح اللهم الا القول بأن هذه هى الطريقة الماركسية فى النقد . فماركس العالم السياسى والاقتصادى كان دائما صريحا الى أبعد حد مع خصومه العلماء ، وكان دائما ضد كل من يحاول الاصلاح عن طريق غير الاشتراكية . فالاشتراكية هى حياته وأمله ومستقبله ، والرأسمالية هى الظلم والقهر والاستبداد والاستغلال .

والاقتصاديون الذين يتصدون للاصلاح الاجتماعى عن طريق الرأسمالية دجالون مخرفون لا نفع فيهم ولا فائدة . ولقد كان مالتس ــ فى رأيه ــ من هؤلاء الذين لم يتعبوا أنفسهم فى ولوج باب الدراسة السياسية الاقتصادية وانما هو يتخصص فى ناحية واحدة صغيرة هى السكان فى زيادتهم عن موارد الثروة القومية المستغلة .

فهذه النقطة هى التى ملكت عليه قلبه وعقله وهى التى ركز عليها جل أبحاثه . وبناء على الفكر الماركسى اذن ــ فان مالتس يمثل قمة الرجعية والتأخر الفكرى ، ولابد لماركس أن يصب عليه جام غضبه .

---

(١) Marx, K. «Capital» p. 378.
(٢) Ibid; p. 548.
(٣) Ibid; p. 679.

ومع ذلك فان أهم وأعنف نقد كتبه ماركس قوله : « ان آراء مالتس الواسعة الانتشار فى أوائل القرن التاسع عشر هى جريمة فى حق العلم » . فهل هى حقا كذلك ؟

مرة أخرى نرجع الى تفسيرات ماركس بهذا الخصوص ... فهو يقول « ما هى النتائج التى تستخلص من آراء مالتس ؟ ثم فى صالح من تهدف هذه الآراء ؟ » ويجيب ماركس على سؤاله هذا قائلا : « ان آراء مالتس هى بالقطع فى صالح الطبقة الحاكمة فى مجموعها لا صالح الطبقة العاملة التى تتحمل وحدها عبء الانتاج » .

واذا كان الامر كذلك فان مالتس — وهو القسيس الارستقراطى — انما يكتب دفاعا عن صـــالح الطبقة الحاكمة التى يمثلها بيئـــة وثقافة . ومن ثم فان ماركس يعتقد أن مالتس لم يكتب للعلم النظرى أو للانسانية عامة وانما هو يكتب لصالح طبقة معينة فقط هى الطبقة الرأسمالية المتحكمة المستغلة التى اشترته .

فهل هذا الاتهام صحيح ؟ الحق أنه من الصعب دحض هذا الاتهام الا ان الوضع الصحيح للمسألة أن مالتس بحكم وظيفته كقسيس قد زار عددا كبيرا من العمال فى بيوتهم ، وخاصة وهم على فراش الموت ، فهذه عادة مسيحية معروفة . ولقد رآهم وتحدث اليهم وتأثر بحالتهم — وهو الشخص الذكى المرهف الحس — فكتب يقول : بعد أن رأى تكاثر العمال وزيادتهم فى أعقاب الثورة الصناعية ، ان السبب الرئيسى للفقر هو الزيادة السكانية ليس الا .

ولقد سيطرت على ذهنه هذه الحالة وأراد أن يركز عليها ويثبتها بصرف النظر عن الناحية العلمية والاطار السياسى الرأسمالى الذى يسيطر على الاقتصاد القومى . وهذه هى الحقيقة فى بساطة وفى صدق وأمانة .

ومما يؤيد ذلك أن ماركس نفسه وهو فى صدد اتهام آخر لمـــالتس قال « لم يكن مالتس بالعالم السهل ، ولكنه أعمق كثيرا مما نظن ... انه لا يهدف الى السكان فى زيادتهم عن موارد الثروة وانما هو يهدف الى بعيد الى تأكيد وتدعيم النظام الرأسمالى القائم » .

وعلى أية حال فان الباحث المدقق يجد فى ثنايا دراسات ماركس شيئا من التوافق الفكرى بين الرجلين . فقد استشهد ماركس بمالتس وأورد فقرات من كتاباته ضمن كتاب ماركس المعروف « رأس المـــال » . كذلك نجد شيئا من التمجيد غير المبـــاشر لآراء مالتس ضمن كتابات ماركس . انظر الى هذه الاسطر التى كتبها ماركس : « ان مالتس رجل ممتاز اذا قورن بغيره من الاقتصاديين السوقة الاشرار مثل ساعا وماستيات وغيرهما ممن صرحوا بأنه ليس هناك نزاع حقيقى بين فئات الشعب المختلفة فى ظل

الرأسمالية . فمالتس ــ على الاقل ــ كانت له مسحة من الشجاعة بحيث ألمح الى أضرار عدم التوازن Disharmony بين فئـــات الشعب فى ظل الرأسمالية » .

الا أن ماركس لم يكن مستعدا للاعتراف بهذه الفكرة كشيء عظيم فى تاريخ مالتس الاقتصادى . ذلك أن العلاج الذى أقره مالتس لاصلاح عدم التوافق بين الطبقات ــ فى رأى ماركس ــ كان بعيدا عن الاصالة والجدية .

نظرية ماركس فى السكان :

وماركس حين ينتهى من نقده الشخصى لمـــالتس يعمد ــ وبنفس طريقته المعهودة السابق الاشارة اليها ــ الى القاء الضوء على نظرية مالتس فى السكان على أساس انها نظرية رجعية خاطئة يتمسك بها السياسيون الرجعيون المدافعون عن النظام الرسمالى . فالنظرية المالتسية تصب جام غضبها على الطبقة العمالية باعتبارها المشعة للفقر الانسانى وأن أفرادها يتزايدون باستمرار دون رابط أو ضابط وبمعدل يفوق معدل زيادة مقومات العيش .

كل هذا لا أساس له من الصحة ــ فى رأى ماركس ــ ذلك أن السبب الرئيسى للفقر هو النظام الرأسمالى نفسه وطبيعته الاقتصادية البحتة حيث يباح استغلال العمال الضعفاء من جانب أصحاب الاعمـــال الاقوياء المستغلين . ولهذا يقول ماركس : « ان مالتس بتركيزه على فكرة التكاثر البيولوجى من جانب الطبقات الفقيرة واعتبارها السبب الاساسى للفقر والتخلف انما يحول أنظار الجماهير العريضة صاحبة السلطة الفعلية فى البلاد عن الحقيقة الواضحة الى شيء آخر تافه ليس هو السبب الاساسى للفقـــر » .

كذلك فان نظرية مالتس فى السكان تعزو الزيادة السكانية الى قانون الهى طبيعى . ومن ثم ــ وكما يقول مالتس ــ فان الفقر والبؤس همـــا صنيعة الرب الذى يفقر الناس ويشقيهم حسب قانون الهى طبيعى . ويرد ماركس على ذلك قائلا : « ان المسؤول عن فقر الناس وبؤسهم هو المجتمع الرأسمالى نفسه بأنظمته البالية المتناقضة ... انه النظام الامـــبريالى الاستغلالى أولا وأخيرا » .

لقد كان ماركس على يقين تام أن ليس هناك قانون طبيعى للسكان . فالاتجاهات السكانية حتى بعد ازالة النظام الرأسمالى انما تتحدد بالظروف التاريخية السائدة . ومن ثم فان كل شكل أو مظهر اجتماعى متتابع له قانونه السكانى الخاص بـــه .

وفكرة الاكتظاظ السكانى المالتسى هى ــ فى واقع الامر وبناء على نظرية ماركس فى السكان ــ خرافة اقتصادية . فليس هناك اكتظاظ سكانى طالما

يتطور الاقتصاد القومى ويتجه قدما الى الاشتراكية التى تزيد من الانتاج دائما والتى تعمل فى سبيل مصلحة المجموع لا مصلحة طبقـــة محظوظة من البورجوازيين .

كذلك فكرة الازدحام السكانى المـــالتسى — فى رأى ماركس — انمـــا ترجع الى طريقة الانتاج الراسمالى السائد اكثر من رجوعها الى مجرد قدرة الانسان على التوالد والتكاثر . فنظام الانتاج الراسمالى يؤدى الى زيادة فعلية فى راس المـــال المستثمر فى العملية الانتاجية بمعدل يقل عن معدل تزايد العمـــال . وكلنا يعرف أن استثمارات راسمالية جديدة لا بد وان تتطلب مزيدا من العمال للعمل فى الصناعات الجديدة المتطورة . وهـــذا هو القانون السكانى الملائم لنمط الانتاج الراسمالى . ومن ثم — وكما يقول ماركس — « فان كل نمط تاريخى انتاجى يتميز بقانون سكانى خاص به »(١)

ويكتب انجلز ، صديق ماركس وزميله ، عن الفكرة نفسها ولكن من زاوية اخرى فيقول : « ان المنافسة الراسمالية القاتلة قد تؤدى الى جعل الانتاج يصل الى حالة مجنونة . وهى كذلك تجعل العلاقات الانسانية تنقلب راسا على عقب ... فهناك منافسة بين رؤوس الاموال على افضل الاســـتثمارات التى تحقق اقصى ما يمكن من الارباح وبصرف النظر عن اتجاهات هذه الاموال . وهناك منافسة بين العمال تصل الى حد اهدار الكرامة والآدمية الانسانية . وسوف يترتب على هذه الانواع المختلفة من المنافسة خلق حالة من التوتر النفسى يصعب معها وجود توازن حقيقى بين قوى الانتاج . وستكون النتيجة النهائية تفشى حالات من البطالة والفقر وضعف مستوى الاجور لدرجة أن الغالبية العظمى من العاملين من ذوى الدخل المنخفض يكادون لا يجدون ما يقتاتون به ، بينما ينعم غيرهم بالغنى والثروة . كذلك فان المنافسة القاتلة تخلق أوضاعا مجنونة حيث تتراوح فترات من الرخاء والازمات والركود والصعود . وينظر الاقتصاديون الراسماليون الى هذا كله فى بلاهة دون أن يدرون سبب ذلك . ولكنهم يجيبون بنظرية تافهة جدا هى النظرية السكانية ليعللوا بها هذه الحالات المتراوحة بين الغنى المفرط والفقر المدقع . ان الاقتصاديين الراسماليين لم يتمكنوا من فهم كنهة هذه الذبذبات الناجمة عن المنافسة لانهم ان فعلوا ذلك وفهموا هذه الحقائق لانهار النظام الراسمالى الذى يدافعون عنه ولاصبحوا جميعا فى عداد الشيوعيين !! » .

ثم يردف قائلا : « ان تفسير الاكتظاظ السكانى بالنسبة لنا نحن الشيوعيين يبدو سهلا . فقوى الانتاج التى يتحكم فيها بنو البشر هى قوى جبارة عظيمة تستطيع — عن طريق العلم وفى ظل التنظيم الاشتراكى — أن تزداد الى مالا نهـــاية »(٢) .

---

(١) K. Marx «Capital Part I p. 594. Published 1903.

(٢) The Myth of Overpopulation. (From Engles' Outline of a Critique of Political Economy 1844).
From Meak's book «Marx and Engles on Malthus» p. 59.

ان مالتس ــ بناء على الفكر المــاركسى ــ لم ينظر الى الاشياء الا نظرة جانبية فقط فهو يغفل الوضع الاقتصادى فى عموميته مهملا دراسة أســباب اختلاله وأسباب الازمات التى تصيبه على الرغم من الاهمية البالغة لهذه الاشياء . لقد كان مالتس يركز دائما على الزيادة السكانية والفــائض السكانى باعتبارهما الاساس الاول والاخير للفقر والبؤس ، ونسى ــ أو لعله تناسى ــ أن ظاهرة الفقر أعمق وأبعد من أن تكون لسبب واحد فقط.

هذه هى الحقائق التى كان ينبغى على مالتس تداركها قبل أن يعرض نظريته فى السكان . ان خطأ مالتس هو بلبلته الفكرية بين معنى مقومات العيش التى ركز عليها وبين معنى مقومات العمل التى أهملها وكان عليــه أن يدرسها بعمق وأصالة .

ان كل مايهم مالتس واتباعه هو بذر بذور التشاؤم بين الناس والطنطنة فى قولهم بأن الارض على وسعها لا تستطيع أن توفر الطعام لسكانها وأن الشعب المتخلف يجب أن يعيش فى خوف دائم من الزيادة السكانية التى ستؤدى به ان عاجلا أو آجلا الى الهلاك والدمار . وهذه الفكرة الاخيرة ــ بناء على مفهوم ماركس ــ هى أعلا وأرفع الحكم الانسانية الصادرة عن الاقتصاد المسيحى الكهنوتى .

ثم انظر الى ماركس وهو يقول فى تهكم بالغ : « اننى لا أقبل الدفاع عن النظرية المــالتسية طالمــا انها لا توضح لى كيف يموت الناس من مجرد الحاجة الى الطعام » وهو يقصد هنا الموانع السلبية « بينما هناك فى المجتمع نفسه المزيد من الثروة » !!

ثم هو يقول بعد ذلك : « وعلى أية حال فشكرا للنظرية المــالتسية المتشائمة التى بصرتنا نحن الشيوعيين بامكانيات الارض الهائلة وبقوتهــا الانتاجية التى تفوق الحد ، والتى لولا هذه النظرية لمــا كنا نحن الشيوعيين فى عداد المتفائلين ازاء مستقبل الجنس البشرى »(١) .

ثم يردف ماركس قائلا : « هل ثبت حقيقة أن السكان يتزايدون على أساس المتوالية الهندســية بينما موارد الثروة لا تزيد الا على أساس المتوالية العددية كما يقول مالتس ؟ من قال هذا ؟ قد تكون الأرض محدودة .. ولكن قدرة الانسان على العمل والانتاج قدرة غير محدودة ، فهى تزيد كلما زادت الاعداد السكانية المستخدمة ، وتزيد باستخدامات العلوم التطبيقية فى كل من الزراعة والصناعة والتجارة والنقل » .

ثم هو يقول : « انه لمن لغو القول أن يكتب مالتس فى الازدحام السكانى ويصوره هكذا على هذه الخطورة بينما هناك من الاراضى المتاحة لبنى البشر ما يصــل الى ملايين الافدنة يستطيع العلم الحديث أن يخضعهــا كلها لارادته(٢) .

---

(١) نفس المرجع السابق صفحة ٦٢ .
(٢) نفس المرجع السابق صفحة ٦٣

الجيش الاحتياطى للعمل :

وماركس الذى يخضع جميع تحليلاته الى هدف عام واحد هو تفسير النظام الرأسمالى المستغل يعتقـــد أن فائض القوى العـــاملة فى المجتمع الرأسمالى او جيش العمال العاطلين The reserve army of labours كما يسميه ماركس ـــ هو الفائض السكانى النسبى الذى اورثه نظام الانتاج الرأسمالى . ان الفـــائض السكانى هو نتيجة لازمة وضرورية للتجميع الرأسمالى ، كما هو وضع ضرورى لاستمرار النظام الرأسمالى الذى يتطلب قوة عمالية كبيرة ـــ واحتياطية ـــ قابلة للاستغلال فى الحال .

ان الجيش الاحتياطى للعمل يجب أن يكون كبيرا لدرجة تكفى لدوام استغلال العمال ودوام حصول أصحاب الاعمال على المزيد من فائض القيمة والمزيد من الارباح . أضف الى ذلك أن ماركس يعتقد أن فائض السكان النسبي ليس له أدنى علاقة بمعدل تزايد السكان وانما هو يرجع أولا وقبل كل شيء الى طريقة الانتاج الرأسمالية والمنافسة الشديدة بـــين عوامل الانتاج السائدة وما يؤديه هذا كله من بطالة عمالية بعيدة المدى .

وهو يفسر ذلك كما يلى : ان طبيعة النظام الرأسمالى نفسه من حيث تعجيله باحلال الآلات محل العمال يؤدى الى التعطل العمالى . كما أن التراكم الرأسمالى فى يد أصحاب الاعمال الرأسماليين يعطيهم القوة والجاه والسلطان فيستطيعون التحكم فى الانتاج ، فيعمدون دائما الى زيادة التجميع الرأسمالى ، فيؤدى ذلك الى ما يسمى بأزمة افراط الانتاج ، الامر الذى يؤدى بعد ذلك الى انخفاض الطلب على العمال ومن ثم الى تعطل عدد كبير منهم . وربما أدى ذلك الى أن يموتوا جوعا .

ان مالتس يعتقد أن قانون السكان الطبيعى هو الذى يؤدى الى الفائض السكانى وبالتالى الى عيشة الكفاف . الا أن ماركس يعزى عيشة الكفاف والفائض السكانى الى البطالة العمالية التى هى النتيجة الطبيعية للتراكم الرأسمالى فى ظل النظام الرأسمالى .

ان أجر العامل الرأسمالى ينخفض بانخفاض الطلب عليه . كذلك فان استقرار انخفاض الطلب على العمال سيؤدى بالطبقة البورجوازية الى الاقلال من الانتاج حفظا لمستوى الارباح التى يحصلون عليها وهى هدفهم الاسمى الذى ينبغى تحقيقه بصرف النظر عن الاضرار المـــادية التى تلحق بالعمال ومن هنا ، واذا ظهرت البطالة العمالية ، وهى ستظهر ولا شك ، ظهرت الحاجة وظهر الجوع والامراض .

وقد يظهر الفائض السكانى ـــ أو جيش العمال العاطلين ـــ فى المفهوم المـــاركسى بطريقة أخرى ـــ فالمنافسة بين العمال فى طلب العمل تجبرهم على بذل أقصى جهودهم حتى لا يتعرضون للطرد . وهى تضـــع صاحب

العمل فى موقف السيادة والتحكم . فاذا كان يستخدم عشرة عمال لتسع ساعات فى اليوم فانه يستطيع أن يستخدم تسعة عمال لعشر ساعات فى اليوم . ومن ثم يصبح العامل العاشر عاطلا لا يجد قوت يومه . كذلك قد يتمكن صاحب العمل من اجبار العمال التسعة على العمل ساعة أخرى اضافية كل يوم بنفس الاجر ، وبذلك « يخنصر » أو يسرق من المجموع الكلى للاجور المدفوعة . وهذه هى العملية الاستغلالية التى كانت تحدث تحت ظل النظام الرأسمالى .

ان خروج بعض العمال ــ الى أتون البطالة ــ فى المعنى الاقتصادى الماركسى ــ هو حرمان هؤلاء العمال من مورد عيشهم وهو الاجور . ويتضمن هذا بالطبع حرمانهم من كثير من السلع الاستهلاكية التى كانوا يشترونها من قبل والتى لا يقدرون على شرائها الآن بعد التعطل . فاذا انخفض مستوى شراء سلع الاستهلاك عمد منتجوها الى الاقلال من انتاج هذه السلع عموما ، وهو اجراء طبيعى بالنسبة لاصحاب الاعمال الذين يهدفون الى تحقيق الارباح فقط والذين يضعون هذا الهدف فوق كل الاهداف. وطالما اتجه المنتجون وجهة الاقلال من الانتاج ــ أى الاقلال من المعروض من السلع الاستهلاكية ــ اتجهوا الى اجراء وقائى آخر هو الاقلال من عدد العمال العاملين تحت امرتهم فتزيد حدة البطالة فى المجتمع . وهنا يبدأ الفائض السكانى الذى ذكره مالتس فى الظهور .

وواضح من هذا التحليل الماركسى النزعة أن الفائض السكانى فى المعنى الذى يهدف اليه ماركس هو بعينه التعطل وعدم القدرة على ايجاد عمل لأن ميكانيكية النظام الرأسمالى جعلته عاجزا عن امتصاص جميع المعروض من العمال . ومن ثم فاذا أمكن توظيف هؤلاء العمال المتعطلين كنتيجة لرجوع دورة الرخاء مرة أخرى أو كنتيجة لتطور اشتراكى حدث فى المجتمع وادى الى تخطيط الانتاج وزيادة الاستثمارات وفتح مجالات جديدة فى الانتاج فعندئذ سرعان ما يمتص هذا الفائض السكانى مرة أخرى دون اللجوء الى الاجراءات المانعة التى يهدد بها مالتس .

ان فكرة الجيش الاحتياطى للعمال نسبية بحتة . فهذا الجيش يكبر ويتضخم حسب ظروف التنظيم الرأسمالى وبناء على ما تلفظه المصانع من العمال وتقذف بهم الى البطالة ، وبناء على قوة السوق الذى يستطيع امتصاصهم بعد ذلك اذا ما تحسنت الاحوال . كما يقل هذا الجيش اذا تمكن عدد من العمال من الهجرة من الريف المكتظ بالسكان الى المدن ، والعمل هناك عمل اقتصادى يدر عليهم أجرا اقتصاديا . ومع ذلك فالخوف كل الخوف أن يزداد هذا الجيش ويكبر فى الحجم منتشرا فى هيكل الاقتصاد القومى كالسرطان الذى يهدد حياة المريض كلما تفشى وانتشر يوما بعد آخر .

وعلى أية حال ــ وكما تقول النظرية الماركسية ــ فان استمرار الزيادة فى عدد العمال العاطلين فى المجتمع سوف يؤدى بالكثير منهم الى العمل فى

أعمال تافهة لا تليق بالكرامة الانسانية أو ربما يسرقون وينهبون بل وربما يهيمون فى الطرقات لا يلوون على شىء ، طالمـــا أن النظـــام الرأسمالى يسود المجتمع بكل ما فيه من نقائص أو مساوىء .

وثمة رأى أخير وطريف لمـــاركس نورده هنا فى ختام دراستنا لفكرة الجيش الاحتياطى للعمل التى فسر بها ـــ وعن طريقها ـــ الفائض السكانى فى الدول الرأسمالية ، ومؤدى هذه الفكرة أن هناك شكلا معينا من الفائض السكانى أسماه ماركس بالعنصر الساكن – Stagnant element – يتكون من فائض العمال الصناعيين والزراعيين فى المجتمع ، وبالذات فى الصناعات المنحدرة (أى الصناعات التى لا تحقق تقدما وانما تتأخر باستمرار) . فمثل هذا الفائض يتكون من عمال قد يعملون فعلا ولكن مستوى الاجور التى يحصلون عليها لا تتيح لهم الا مستوى الكفاف وربما أقل من هذا المستوى. فى مثل هذه الفئة من الناس تزيد معدلات المواليد وترتفع لتكون فى حدودها الطبيعية العليا .

ومعنى هذا ـــ بصورة أخرى ـــ أن معدلات المواليد تتغير دائما وبطريقة عكسية للتغير الذى يحدث فى الاجور ـــ فكلما ارتفعت الاجور وحصـــل العمال على مستويات معيشية أكثر ارتفاعا انخفضت معدلات المواليد . وعلى العكس فاذا انخفضت الاجور وعاش العمال عيشة الكفاف ارتفعت هذه المعدلات(١) . ولا يختلف هذا الرأى عن رأى آدم سميث الاقتصادى التقليدى القديم . وهنا وجه الغرابة .

ولقد عمـــد الاتحاد السوفيتى مؤخرا الى اجراء دراســـة احصائية اقتصادية ديموجرافية عن معدلات الخصوبة لدى فئات العمل المختلفة . وثبت من هذه الدراسة ان الخصوبة Fertility ـــ قد انخفضت لدى فئات العمل العالية والتى تحصل على أجور مرتفعة وترتفع لدى فئات العمل الدنيا التى تحصل على أجور منخفضة . وهى نفس النتيجة المعروفة جيدا فى الاوساط الرأسمالية القديمة منها والحديثة ، والتى ما كان يجب أن تظهر فى المجتمع السوفيتى الذى يفخر بأن مستويات الاجور العمالية لديه تكاد تتساوى .

ويعلل الاقتصاديون السوفييت هذه النتيجة ـــ العلاقة العكسية بين الخصوبة ومستوى الاجور ـــ على أساس اعترافهم بأن هناك اختلافا وتفاوتا فعليا بين مستويات الاجور فى الاتحاد السوفيتى . ذلك ان قوى الانتاج فى المجتمع السوفيتى المعاصر لم تصل بعد الى تحقيق الشيوعية المثالية حيث يسود المبدأ المعروف « من كل حسب عمله الى كل حسب حاجاته » فلا زال أمام الاتحاد السوفيتى الكثير من العمل الجاد المخطط ومن النمو الاقتصادى

---

(١) جاء هذا الرأى منسوبا لمـــاركس نفسه فى تقرير حديث لهيئة الامم المتحدة صدر سنة ١٩٦٨ بنفس العنوان القديم الذى ظهر من سنة ١٩٥٣ وهو The Determinants and Consequences of Population Trends. الفصل الثالث صفحة ٣١ .

ومن الانضباط الشيوعى ليصل الى المثالية الشيوعية والتى يتحقق عندها هذا الشعار ولتصل مستويات الاجور الى التعادل المثالى ، وبذلك فقط تنتهى هــذه العلاقة شــبه الرأسمالية التى تربط مســتويات الاجــور ومعدلات الخصوبة .

٣ ــ لينــين وســتالين

ويرتبط اسم لينين ارتباطا وثيقا باسمى كارل ماركس وفردريك انجلز المفكرين الاشتراكيين الكبيرين . ولقد وجدت المــاركسية فى لينين أعظم المــاركسيين ثقافة وصلابة واتساقا مع اتجاهاتها السياسية والاقتصادية والثورية . كذلك وجد لينين فى المــاركسية النظرية الثورية وذروة البحث العلمى فى التاريخ والاقتصاد والفلسفة .

ولقد نشر لينين فى فترة رئاسته القصيرة للحزب الشيوعى السوفيتى افكار الاشتراكية العلمية التى صاغها ماركس وانجلز ، كما شارك اكثر من اى مفكر آخر فى رفع قدر المــاركسية بتزويد الطبقة العاملة بالمعرفة التى كانت بحاجة اليها من اجل انتصار قضيتها .

واللينينية ــ أى مذهب لينين السياسى والاقتصادى ــ ما هى فى واقع الامر الا استمرار وتطوير للماركسية فى ظروف الربع الاول من القــرن العشرين . فلقد عمد لينين ذو النزعة المــاركسية الظاهرة الى التسليم بآراء ماركس معتبرا اياها مثله الاعلى الفكرى والثقافى. الا أنه ــ وبطريقة منتظمة تكاد لاتحسها ــ عمد الى تطوير آراء ماركس لتتسق وظروف التحول الاشتراكى فى روسيا فى القرن العشرين .

ولينين ــ باعتباره اشتراكيا عالميا ملما المــاما تاما بتعاليم ماركس ــ لم يخرج عن الخط العريض الذى اختطه الاشتراكيون قبل وبعد مركس فيما يختص بالسكان والدراسات السكانية . فهذه الدراسات لا تجىء منفصلة وانما هى دراسات جانبية لا تأخذ وضعا رئيســيا وهاما اذا ما قورنت بالدراسات السياسية والاقتصادية والفلسفية التى تأخذ من الاشتراكيين كبير اهتمامهم . وبناء عليه فقد لمس لينين المشاكل السكانية المختلفة المختصة بالاتجاهات السكانية دون أن يفرد لها دراسة خاصة كما فعل مالتس(١) .

والسؤال الذى ربما واجهنا الان هو : ما هو موقف الســكان فى المجتمعات الشيوعية مستقبلا ؟ ان ماركس وزميله انجلز كانا اكثر تحفظا ازاء هذه النقطة من غيرهما من الاقتصاديين المثاليين الاشتراكيين الذين

---

(١) as stated by the U.N. report «Lenin touched upon various problems regarding population trends in his economic and political writings» U.N. Report Page 32.

سبقوهما . فبناء على رأى انجلز فان التنظيمات الاجتماعية السائدة فى سنة ما وفى دولة ما انما تتحدد عن طريق زيادة الانتـــاج المباشر ، الذى يتميز بناحيتين : الاولى هى انتاج مقومات الحياة والبقاء ، والثانية هى زيادة الانتاج البشرى . وكلما تطور العامل البشرى كلما ادى ذلك الى تطـــور مقومات العيش والبقاء ، وبذلك يتحدد التنظيم الاجتماعى السائد والملائم (١). ففى خطاب كتبه انجلز سنة ١٨٨١ ذكر ان هناك احتمال أن يتزايد الاعداد السكانية بدرجات كبيرة يتحتم عندها تنظيم أو ضبط تلك الزيادة . فاذا حدث ذلك بالفعل وعند مرحلة معينة من تطور المجتمع الشيوعى فان هذا المجتمع بحكم تطوره وثقافته لن يجد صعوبة فى أن يحقق ـــ عن طريق التخطيط ـــ ضبط المواليد (٢) .

وهو رأى يتضمن دعوة ضمنية لضـــبط النسل فى مرحلة معينة من مراحل تطور المجتمع الاشتراكى .

فالسكان بالنسبة له عامل متغير يؤثر فى الاوضاع الاقتصادية بطريق غير مباشر وآراء مالتس بالنسبة للينين لا تستأهل كل هذه القيمة التى أثيرت حولها لانها قائمة أساسا على قانون الغلة المتناقصة الذى يرفضـــه لينين ويعتقد أنه خرافة اقتصادية رأسمالية مؤدية الى التشاؤم والشك فى مستقبل الجنس البشرى .

والفكرة الاساسية لقانون الغلة المتناقصة ـــ والتى بنى عليها مالتس نظريته فى السكان ـــ هى أن كمية الارض الزراعية تكاد تكون ثابتة تقريبا . ومن هنا يعتمد الاقتصاديون الى زيادة نصيب العمل باعتباره أحد عناصر الانتاج الاربعة الرئيسية ، أو يزيدون من استخدام رأس المـــال فى العملية الانتاجية فيؤدى ذلك الى زيادة الناتج الكلى ، الا أن الناتج الحدى يزيد الى نقطة معينة يبدأ بعدها فى التناقص كلما اضفنا مزيدا من العمل أو رأس المـــال .

هذا ـــ باختصار ـــ هو قانون الغلة المتناقصة الذى اعتمد عليه مالتس فى ابراز مبدأ الاكتظاظ السكانى طالما أن السكان يزيدون بأعداد كبيرة دون حدوث زيادة مناسبة فى نصيب الفرد فى المتوسط من ناتج الاراضى الزراعية. الا أن لينين ذا النزعة التفاؤلية والمؤمن اللانهائى بمستقبل العلم والتطور التكنولوجى تحت راية الاشتراكية يرفض رفضا قاطعا مبدأ الغلة المتناقصة أى التناقص فى نصيب الفرد الواحد فى المتوسط من الثروة (٣) . فالثروة سواء فى القطاع الزراعى أم الصناعى أم قطاع التعدين والثروة المعدنية

---

(١) Engles; «The Origin of the Family».

(٢) Meek, «Marx and Engles on Malthus» p. 109.

(٣) انتقد لينين فى كتابه « المسألة الزراعية » قانون تناقص الغلة واعتبره محـــاولة رأسمالية متعمدة لاحياء المـــالتسية من جديد .

لا نهاية لها طالما أن العقل الانسانى دائب على تطوير استخدام التكنولوجيا الحديثة وطالما عمل الانسان ــ سيد الآلة ــ على الانتصار على الطبيعة التى تحيط به واستخدام ثرواتها المختلفة الظاهرة منها والباطنة استخداما اشتراكيا أولا ومناسبا لمقتضيات العصر ثانيا .

ومن هنا فان لينين لا يبدى اية مخاوف من زيادة السكان طالما أن الزيادة تحدث فى دولة اشتراكية متطورة يشارك جميع المواطنين بها فى العمل الخلاق من أجل المزيد من العلم والتكنولوجية الحديثة والمزيد من المعرفة المؤدية الى رخاء الانسان وسعادته . فالعلم لا حد له والثروة لا نهاية لها ومن ثم فان التشاؤم ازاء الزيادات السكانية لا محل له .

واتساقا مع هذه الناحية التفاؤلية البحتة يعتقد لينين أن معدل زيادة السكان فى الدول الرأسمالية ــ وفى أوائل القرن العشرين ــ أسرع منه فى الدول الاشتراكية ، وهو يعطى لذلك سببين رئيسيين :

الاول : ان مركز المرأة فى التنظيم الاشتراكى أكثر حرية من مركزها فى التنظيم الرأسمالى . فهى تعمل وتحصل على أجر وبالتالى فهى غير معتمدة اعتمادا كليا على زوجها فى حياتها ومن ثم فهى ليست آلة لانجاب الاطفال كما يقال عنها فى المجتمعات الرأسمالية غير المتقدمة . ولذلك فقلما تغالى فى هذا الانجاب .

والثانى : أن الاحتكارات الرأسمالية المنتشرة فى الدول الرأسمالية تعمل على تشجيع تصدير رأس المال الى الخارج بكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة لان ذلك فى مصلحة الرأسمالية الاحتكارية لما يؤدى ذلك الى كسب المزيد من الايدى العاملة الرخيصة التى يمكن استغلالها لتحقيق أقصى الارباح للرأسمالى . ولذلك تبدأ مشكلة الاكتظاظ السكانى وتظهر بصورة عنيفة فى المستعمرات والمناطق النامية من العالم الرأسمالى (١) . ومع ذلك فان لينين ذا النزعة التحررية البحتة يكتب مقالا سنة ١٩١٢ بعنوان « الطبقة العاملة والمالتسية الجديدة» محبذا مبدأ ضبط النسل فى المجتمعات الاشتراكية طالما أن الرجل والمرأة يتفقان على ذلك ويجدان فيه ضرورة ملحة(٢) . ومع ذلك فان رأى لينين ليس واضحا تماما ، فقد كان جل اهتمامه موجها نحو تحرير المرأة من شقاء العمل فى المنزل ومن مركزها القديم فى الاسرة باعتبارها آلة لانجاب الاطفال .

وهو ينظر الى الاسرة على أنها شركة رفقاء كما كان الحال بالنسبة

---

(١) M. Dobb; «Political Economy and Capitalism» London 1937 — pp. 234 — 235.

(٢) Lenin, v. «The working class and Neo-Malthusism.» p. 201.

له فى زواجه . كذلك يقال أنه سلم بحق الافراد فى الاجهاض الا أننى شخصيا لا أستطيع أن أجزم بصحة هذا الرأى الاخير .

أما « ستالين » زعيم روســـيا الاعظم فى الثلاثينيات وأثنـــاء الحرب العالمية الثانية ـــ فقد عالج بعض آراء ماركس فى السكان ولكنه لم يضف اليها من عنده شيئا جديدا . فهو يعتقد أن النمو السكانى لا يحدد تطوير المجتمع وانما فقط يسهل أو يعرقل عملية التطور .فالنمو السكانى فى حد ذاته لم يفسر لنا لمـــاذا انتقلت المجتمعات من نظم العبـــودية القديمة الى نظم الاقطاع . كما لم يفسر لماذا انتقلت هذه المجتمعات من نظم الاقطاع الى عصر البورجوازية المستغلة . كل هذا لا يفسره ظاهرة النمو فى الاعداد السكانية. وانما يفسره ظاهرة الانتاج السائدة وما طرأ عليها من تطور يؤدى بدوره الى انتقال المجتمع من شكل معين من أشكاله الى شكل آخر . وهى كلها ليست جديدة على الفكر الماركسى لانها التفسير الصحيح لآراء كارل ماركس فى التطور المـــادى للتاريخ .